جامع الزيتونة

ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي

من سنة 603/1206 إلى سنة 1117/1705

الطاهر المعموري

Türkiye Diyanet Vakfı
İslâm Araştırmaları Merkezi
Kütüphanesi
Dem. No: 131488
Tas. No: 377.9611
MAM.C

الدار العربية للكتاب

جميع الحقوق محفوظة الدار العربية للكتاب

- 1980 -

بسم الله الرحمن الرحيم

هى نغمات روحية خالدة ، وأجواء قدسية عطرة ، تنطلق وتزهو كلما تنفست ، واستعدت لتنطق كلمة جامع الزيتونة . لأنها كلمة بعيدة الغور فى تاريخ الايمان ، والعلم ، والثقافة فى بلادنا التونسية . ابتدأت منذ تأسس الجامع ، وعمر هذه المنطقة ، وشع نوره فى أرجائها ، وتسارع الناس للكرع من مناهله ، وإزاحة الستار الذى فصل بينهم وبين مبادىء الاسلام وسماحة شريعته . ولقد تواصل هذا العطاء ، لكننا لم نتبين معالمه خلال الفترات الاولى الا من خلال تراجم بعض العلماء الذين استقروا بتونس ، ودرسوا فى أغلب الظن بالجامع الاعظم كعلى بن زياد وغيره . لهذا اضطررت فى استعراضى لبعض النماذج من النشاط العلمى والدينى بجامع لزيتونة ، أن أبدأ بالعهد الحفصى ، وهى الفترة التى تفتقت فيها العلوم الاسلامية فى تونس ، باستفادتها من الروافد المشرقية والاندلسية . وباعتمادها على المراكز العلمية وفى طليعتها الجامع الاعظم جامع الزيتونة المعمور . الذى امتد اشعاعه ، وخفق نوره ، وتواصل مدده ، فكان كعبة القصاد ، وأمل الرحالين ، وذخر الاسلام وعلومه ، بالنسبة للمغرب العربى ، وعدد من أقطار القارة الافريقية .

وبهذا الاعتبار كان جامع الزيتونة ركنا امتزجت فيه ثقافتنا العربية الاسلامية ، وتأصلت . فكانت نقمة ودمارا على كل من رام مسخ الشخصية التونسية الاصيلة . وكان هو دائما هدفا لنقمة جيوش الكفر من الاسبان وغيرهم .

ونحن لا ندعى الشمول فى هذه الدراسة وانما هى خطرات أملتها الظروف علها تساهم فى التفكير فى كتابة جديدة لتاريخ الثقافة الاسلامية بهذه الربوع .

والله أسأل ان يوفقنا لما فيه الخير والصلاح انه سميع مجيب .

الطاهر المعمورى

سكرة 20 ذى القعدة 30 سبتمبر 1400 / 1980

مُقدّمة

مُميزات الحياة الفكرية في العهدين الحفصي والتركي

امتازت الحياة الفكريّة في العهد الحفصي بعدّة مميزات منها : قيام الدّعوة الحفصية على الاتّجاه الموحّدي ، الذّي دخل إفريقيّة على إثر غزو عبد المؤمن بن علي ، الذّي أمر سنة 1155/550 بحرق كتب الفروع ، وردّ النّاس إلى قراءة كتب الحديث ، واستنباط الأحكام منها (1). على أنّ هذا التيّار الموحّدي لم تتوضّح معالمه بتونس إلا في عهد أبي زكريا يحيى الأوّل (625–1248/647–1249) ، الذّي صدع بالإنكار على أبناء عبد المؤمن لتهاونهم في حماية الدّعوة الموحّدية ، واتهمهم بالخروج عن المبادىء التّي بايع عليها المشايخ الموحّدون الإمامَ المهدي ابن ترموت (2).

ثمّ أخذ في إعداد العدّة لنقل مركز التأثير الموحّدي من المغرب الأقصى إلى تونس ، حين اتّصل بما يفيد أنّ المأمون إدريس بن المنصور (621–1228/627–1229) قتل الموحّدين بمراكش ، وأشاع النّكير على المهدي في ادعاء العصمة ، والنّداء للصّلاة باللّسان البربري ، وإحداث النّداء للصّبح ، وتربيع شكل الدّرهم ، وأنّه غيّر أصول الدعوة وأسقط اسم الإمام من الخطبة ، والسكّة ، وأعلن لعنه (3).

---

(1) السلاوي : 1 : 150.

(2) انظر ترجمته في ابن الأثير 8 : 294 ، ابن خلكان 5 : 47 ، المراكشي 115 ، ابن ابي زرع 120 ، الزركشي 120 ، عنان 1 : 158 ومابعدها.

(3) ابن خلدون 6 : 594 ، 595.

ولإبراز هذا الانفصال عن مركز الدّعوة الأصلي وهو مدينة مراكش ، بنى أبو زكرياء يحيى جامع القصبة وسمّاه الجامع الموحّدي (4) ، وأذن فيه أذانا موحديا (5). ثمّ أسقط الخطبة لأبي زكرياء ابن الناصر ، واقتصر على الدّعاء للمهدي ، وجدّد البيعة لنفسه سنة 1236/634 دون أن يلقب بأمير المؤمنين (6).

وكان هدف الأمير أبي زكرياء نشر الاتّجاه الموحّدي عن طريق العلماء الأندلسيين ، الذّين وجدوا تسهيلات عظيمة منه ، فتوافدوا عليه جماعات ، وجعل منهم وسيلة لإضعاف التّيار الموحّدي المغربي ، وإبراز التيّار الموحّدي الإفريقي.

ويبدو أنّ محاولات تركيز المذهب الموحّدي في إفريقيّة فشلت ، لعدم اقتناع الخلفاء الحفصيين بنشره ، ثمّ لأنّ المذهب المالكي كان يسود كافة المناطق ، ومدده العلمي متواصل ، بخلاف الاتّجاه الموحّدي فإنه ما استطاع الصّمود إلاّ عن طريق السّلطان . ومن مظاهر مقاومة أهل إفريقية للمذهب الموحّدي إنكارهم على خطباء الموحدين قولهم في خطبة الجمعة «ورضي الله عن الإمام المهدي المعصوم» فبدّلوا ذلك بقولهم : المعلوم (7).

ومن المميّزات التّي امتازت بها الحياة الفكرية في العهد الحفصي كذلك خضوعها لتيّارات فكرية متعدّدة : مشرقية متمثّلة في الدّفع الجديد للعلوم المختلفة عل يد جماعة من العلماء ، رحلوا الى المشرق ، وعاشوا التّطورات الثّقافية التّي كانت تسود المنطقة ، ومنها : تبلور العقيدة الأشعرية عن طريق إمام

(4) هو المسجد الجامع الواقع في اول شارع باب المنارة. راجع ابن القنفذ 109، ابن الشماع 45 ، ابن الخوجة : تاريخ معالم التوحيد 91.

(5) يضيف الموحدون إلى الأذان جملة « الصبح ولى والحمد لله » . ابن القطان ، 127.

(6) ابن خلدون 6 : 595 ، ابن القنفذ 109.

(7) الأبي 2 : 423.

الحرمين (8) و أبي بكر الباقلاني (9) وأبي حامد الغزالي (10) ، والإمام الرازي (11) ، الذّين زادوا في تعميقها عن طريق الفلسفة ، وعلم المنطق . ونتيجة لهذا ضعف مذهب المعتزلة لعدم وجود مدد جديد من المفكرين يضيفون له عناصر جديدة ، تمكّنه من مواصلة المجهود . هذا بالنّسبة للعقيدة الأشعرية . أمّا بالنّسبة لعلوم العصر فقد كان للرّازي موقف فيها ، دفع بمؤرّخي العلوم إلى جعل ابن الخطيب حدا فاصلا بين ما تعوّده النّاس قبله ، وما اصبحت عليه العلوم بعد تناول الرّازي إياها وتقديمها في صورة جديدة تختلف عن طريقة الأقدمين . ففي علم الأصول لخص في كتابه المحصول (12) كتب المتقدمين ، وزاد عليها كثيرا من الأدلّة والاحتجاج . وفي علم الكلام قدّم طريقة جديدة ، تمثّلت في مزج أصول هذا العلم بالفلسفة ، حتّى أصبح يعسر التّفريق بينهما ، ويظهر ذلك واضحا في كتابه المباحث المشرقية (13) وفي المنطق نظر في قواعد الأقدمين ،

(8) هو أبو المعالي ضياء الدين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن محمد النيسابوري الشافعي ، المعروف بإمام الحرمين. فقيه ، أصولي ، متكلم ، مفسر. 419 — 1028/478 — 1085. من تصانيفه الشامل في : أصول الدين ، البرهان في أصول الفقه. السبكي 3 : 249 — 283.

(9) هو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم البصري ، ثم البغدادي المعروف بالباقلاني . 338 — 950/403 — 1013 . من تصانيفه : تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل . مناقب الأيمة ونقض المطاعن على سلف الأمة ، إعجاز القرآن ، أسرار الباطنية . ابن فرحون 267 ، 268.

(10) هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن احمد الطوسي الشافعي المعروف بالغزالي حكيم ، متكلم ، فقيه ، أصولي ، صوفي . 450 — 1058/505 — 1111. من تصانيفه الكثيرة إحياء علوم الدين ، تهافت الفلاسفة. راجع قائمة المصادر في كحالة 11 : 266.

(11) هو ابو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين بن علي التميمي البكري الطبرستاني الرازي الشافعي ، المعروف بالفخر الرازي ، وبابن خطيب الرى ، مفسر ، متكلم ، فقيه ، أصولي ، حكيم 543 — 1149/606 — 1210 . من تصانيفه الكثيرة : مفاتيح الغيب ، المباحث المشرقية. السبكي 5 : 33 — 40.

(12) راجع خليفة 2 : 1615.

(13) ابن خلدون : المقدمة 921.

ونقص كثيرا منها بالأدلّة والبراهين ، وصارت تسمّى هذه الطّريقة بطريقة المتأخّرين .

ومن أشهر الجماعة الذّين رحلوا الى المشرق وتأثّروا بهذا التيّار الجديد : أبو الفضل ابو القاسم بن أبي بكر بن مسافر بن أحمد بن عبد الرّفيع اليمني المشهور بابن زيتون (14) المتوفّى سنة 691/1291—1292 . الذّي رحل الى المشرق مرّتين الأولى سنة 648/1250—1251 والثانية سنة 656/1258 (15) . واتّصل هناك بأقطاب العصر كالعزّ ابن عبد السّلام (16) . وزكي الدّين المنذري (17) ، وشمس الدّين عبد الحميد بن عيسى الخسروشاهي (18) تلميذ الفخر الرازي .

وتؤكد المصادر (19) أنّ ابن زيتون أوّل من أظهر مؤلفات الفخر الرّازي الأصولية بمدينة تونس ، وتردّد العلماء على بيته ، ومجالسه بالمدرسة الشّماعية لعلو منزلته العلميّة (20) ، حتّى أنّه لا يتأخر عن مجالسه أحد من طلبة العاصمة .

---

(14) الغبريني 56 ، ابن خلدون : المقدمة 772 ، ابن فرحون ، 99 ، 100 ، التنبكتي 222 ، مخلوف 193 عدد 650.

(15) Brunschvig 2 : 289

(16) هو أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم ابن الحسن بن محمد بن المهذب السلمي الدمشقي الشافعي ،المعروف بابن عبد السلام . فقيه، مشارك في عدة علوم.(577—660/1181 — 1262 . من تصانيفه : القواعد الكبرى في أصول الفقه ، شرح السول والأمل في علمي الأصول والجدل. ابن العماد 5 : 301 — 302.

(17) هو أبو محمد زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله بن سلامة بن سعد المنذري الشامي الأصل المصري الشافعي . محدث، حافظ،فقيه. 581 — 656/1185 — 1258. من مؤلفاته :شرح التنبيه للشيرازي في :فروع الفقه الشافعي، معجم الشيوخ، المجتبى ، الترغيب والترهيب. السبكي : 108 — 118.

(18) هو شمس الدين عبد الحميد بن عيسى الخسروشاهي التبريزي ، الشافعي ، طبيب ، حكيم ، فقيه ، أصولي، متكلم، محدث. له من الكتب : مختصر كتاب الشفاء لابن سينا، تتمة كتاب الآيات البينات لابن الخطيب. السبكي 5 : 60 ، ابن أبي أصيبعة 3 : 283.

(19) الغبريني ، 56 ، ابن خلدون : المقدمة ، 772 ، ابن فرحون 99 ، 100 التنبكتي 222.

(20) كانت له اتصالات مع المستنصر الحفصي . ابن ناجي 1 : 393.

وقد وجد تيار آخر محافظ إلى جانب تيّار ابن زيتون المتحرّر المتفتّح تمثّل في العالم أبي محمد عبد الحميد ابن أبي الدّنيا الصّدفي الطرابلسي (606 — 684/1210 — 1290) الذّي اشتهر عنه تمسّكه بطريقة الأقدمين في أصول الدّين وطريقة القرويين في أصول الفقه ومحاربته لعلم المنطق (21) .

ومن الذّين رحلوا الى المشرق واستجلبوا معهم هذا التيّار الجديد : ابو عبد الله محمد بن شعيب الدّكالي الهسكوري (22) المتوفّى بتونس سنة 664/1265—1266 ، الذّي أخذ عن مشايخ مصر ، وكانت طريقته مفيدة ، وأقبل عليه سكّان تونس ، واستفادوا منه . وهذه الطريقة الجديدة التي اشاعها هذان العالمان اتّصل سندها في تلاميذهما جيلا بعد جيل حتّى انتهت الى القاضي محمد بن عبد السلام الهواري (23) ، وتلميذه أبي عبد الله محمد من محمد ابن عرفة ، ويأسف ابن خلدون لقلّة الذّين تلقوا هذا السّند حتّى أنّه يخشى انقطاعه (24) .

ومنهم كذلك أبو علي منصور المشذالي (25) ، الذّي وصف بآخر رجالات الكمال بافريقية والمغرب الأقصى . سافر الى المشرق ، ولزم العز ابن عبد السّلام كثيرا ، وانتفع بعمله ، ولقي تلاميذ أبي عمرو عثمان بن الحاجب (26) ، واستجلب معه

---

(21) الغبريني 64 ، 65 ، النيفر 1 : 69 ، 70 ، مخلوف 1 : 192 عدد 645 .

(22) الغبريني 110، 113 ، ابن خلدون : المقدمة 772، التنبكتي 290 . Brunschvig 2 : 289

(23) هو أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن يوسف الهواري التونسي القاضي ، ويعرف بابن عبد السلام 676 — 749/1277 — 1349 . ابن فرحون 336 ، التنبكتي 242.

(24) ابن خلدون : المقدمة 772.

(25) هو ناصر الدين أبو علي منصور بن احمد بن عبد الحق الزواوي المشذالي 632 — 1235 تقريبا 731 — 1330. فقيه ، أصولي ، متكلم. كان يحسن في كل من أصول الدين وأصول الفقه طريقة الأقدمين وطريقة المتأخرين. الغبريني 134 ، 135 ، ابن خلدون : المقدمة 773 ، 809 ، التنبكتي ، 344 ، 345 ، Brunschvig 2 : 289 .

(26) هو عثمان بن عمر بن يونس المعروف بابن الحاجب جمال الدين المصري 570 : 1174. 646 — 1248. من أشهر تصانيفه : مختصره في الفقه المالكي . ويسمى المختصر الفقهي والفرعي والجامع بين الأمهات. ابن تغرى بردي 6 : 360.